نقد السياسة الأمريكية اتجاه الإسلام

المدرس المساعد

علي عبد المحسن كريم

المبحث الأول

الحوار والتواصل الحضاري آليات جديدة للتعايش بين الحضارات

من بين نظريات النزاع أو الصراع المتنوعة،والتي تتماشى مع تنوع كلمة صراع،هناك خط رئيسي يفصل ما بين تلك النظريات التي تتعامل مع النزاعات،على أنها حالة مرضية وتسعى إلى معرفة أسبابها وعلاجها،وتلك التي ترى أن النزاعات أمر لابد منه،وتعمل على دراسة السلوك المرتبط بها، وتنقسم هذه الأخيرة بدورها إلى نوعين:أحدهما يركز على المشاركين في النزاع بكل تعقيداتهم،أي فيما يتعلق بالسلوك العقلاني واللاعقلاني،والواعي وغير الواعي، وما يتعلق بالدوافع والحسابات أيضا،أما الآخر فيركز على نوع من النزاع أكثر وعيا وبراعة وعقلانية. (١).وبوضوح شديد يتعامل هذا الصنف الثاني مع النزاع على انه نوع من أنواع المسابقات يسعى المشاركون فيه إلى أن يفوزوا،فدراسة سلوك واع وذكي ومعقد من سلوكيات النزاع،أي دراسة سلوك ناجح يشبه البحث عن قواعد للسلوك الصحيح،بمعنى السلوك المؤدي إلى الفوز بالمسابقة،فالولايات المتحدة الأمريكية كقوة عالمية،لا تنطلق في توجهات سياستها الخارجية نحو العالم من فراغ سياسي – إيديولوجي،بل تقوم على منطق إستراتيجي مسطر لحماية مبادئها التي صاغتها تلك الإستراتجية بناءا على العقلية السياسية لصناع القرار في البيت الأبيض و البنتاغون.وهذه العقلية لا تنفك عن منطق الإيديولوجيات المؤثرة على أصحاب القوة في الولايات المتحدة الأمريكية.فكثيرا ما يتردد علينا مصطلح " الإيديولوجية " خاصة خلال فترة الحرب الباردة،ولكن القليل من يعرف أهميته في ظل تجاذبات السياسة الدولية بتعقيدات تفاعلاتها،خاصة إذا عرفنا أهمية منطقة الشرق الأوسط خاصة والشرق عامة،ما تحمله هذه المنطقة من مميزات تلهم السياسيين الأمريكيين و

قضية الصراع العربي الإسرائيلي وأولوياتها في الأجندة الأمريكية في إطار الدور الأمريكي الفاعل،وميكانيزمات.([٢]).ترجيح كفة الموقف الأمريكي لحساب طرف على الآخر،أن التحولات الجذرية التي يعيشها العالم على عدة مستويات ولدت مجموعة من الديناميكيات الجديدة والفاعلة على المسرح الدولي،الشيء الذي دفع إلى القيام بدراسة للمنظومة الفكرية والإيديولوجية السائدة على مستوى السياسة الأمريكية.

يرى صموئيل هانتغتون،بأن غياب العدو الشيوعي الذي استمدت منه الولايات المتحدة الدافع لمواصلة تماسكها و تطورها،يقضي اختراع عدو جديد ،حيث كثر الحديث عن الفراغ الاستراتجي العميق الذي انتاب الغرب وعبر عنه بقوله(أن السؤال الأكثر عمقا الذي يهم الأمريكان في عالم ما بعد الحرب الباردة ما هي الغاية من ان تكون أمريكيا ؟). ([٣]).ومنه سعت واشنطن لتنصيب الإسلام ليحل محل الشيوعية ،إن الغرب لم يعد قادرا على التعرف على نفسه بعد انهيار الشيوعية إلا من خلال تنصيب الإسلام كأخر جديد أي عدو أخر جديد.لطالما كانت الإيديولوجية صفة ملازمة للسياسة الأمريكية،فعملية صنع السياسة الخارجية الأمريكية، وطبيعة النظام السياسي المعقد فيها،جعلت من مجال الدوائر و المؤسسات المساهمة في صنعها واسعا جدا.هذا ما سمح للهيئات الرسمية وغير الرسمية،مثل الإعلام و اللوبي و مراكز التفكير،من لعب دور فاعل في تحديد الإيديولوجيات التي تساهم في تأثيرها على صنع القرار.تكمن أصول السياسة الخارجية الأمريكية في المفهوم الآتي(المصير المحتوم أو المبين)،و قد صاغها " جون او سليفان " بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٦٥ وفق الآتي:(أن الرب قد قدر للشعب الأمريكي المختار أن يقود العالم إلى نهاية التاريخ وأن المستقبل سيكون عصر العظمة الأمريكية بلا قيد أو شرط).([٤]).وفي دراسة حول الايدولوجيا الخارجية الأمريكية أفادت هذه الدراسة أن مقومات الأيديولوجية الأمريكية،ثلاثة محاور أو أسس أولا:عظمة أمريكا و ضرورة الحفاظ عليه .وثانيا مواجهة التحديات الثورية

التي تهدد مصالح أمريكا.وثالثا:تفوق الجنس الأبيض.(٥).وهذه الثلاثية شكلت محور استراتيجي للسياسة الأمريكية،فلطالما لعبت دورا هاما في تحديد السياسة الأمريكية اتجاه العالم الإسلامي،في ظل تحالف بين المسيحية والصهيونية،وظهور كوكبة المحافظين الجدد.أما الثروة ومنطق الفلسفة الليبرالية القائم على فكرة(دعه يعمل دعه يمر فهو حر)، وأخيرا القوة الصفة الملازمة للسياسة الأمريكية،لأنها دائما عمدت إلى تقديس القوة الصلبة وتحقيق فكرة الإمبراطورية العظمى.(٦).فأثر انهيار الاتحاد السوفيتي، ظهرت العديد من الدراسات التي شكلت قاعدة إيديولوجية،تأثر بها صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية،على غرار ما تقدم به فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ أو الإنسان الأخير،و صدام الحضارات لمواطنه صموئيل هانتغتون،دون أن ننسى أطروحة برنارد لويس لتقسيم العالم الإسلامي. وهذا الفهم يستلزم تحليل عملية اتخاذ القرار السياسي في الدولة وآليات صنع السياسة الخارجية فيها،وتوجهاتها ومحدداتها في المنطقة العربية،وطبيعة دور المؤسسات والجهات المجتمعية والحكومية في هذه العملية،ودور جماعات الضغط واللوبي الصهيوني في توجيه هذه السياسة والتأثير في حركتها واتجاهاتها،لخدمة مصالح الكيان الصهيوني في المنطقة العربية ودعمه في مواجهة العرب. لا يمكن فهم السياسة الخارجية الأمريكية تجاه المنطقة العربية إلا بالنظر إلي ثلاثة مستويات من التحليل :-

أولا : عالميا .

ثانيا :- إقليميا.

وثالثا :- محليا.

فخلال معظم مرحلة الحرب الباردة من خمسينيات القرن العشرين إلى بداية التسعينيات منه،كانت النظرة العالمية هي المسيطرة علي مجرى السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية،باستثناء إدارتي كيندي في بداية الستينيات وكارتر في منتصف السبعينيات من القرن العشرين،واللذين غلبا النظرة الإقليمية على النظرة

العالمية.فخلال مرحلة الحرب الباردة كانت الولايات المتحدة متوجسة وخائفة من التهديد السوفيتي والشيوعية،لذا بذلت الولايات المتحدة جهوداً كبيرة لمنع النفوذ السوفيتي من التوغل في المنطقة العربية،لحماية المصالح الأمريكية في المنطقة،وخاصة ضمان تدفق النفط من دول الخليج العربية للولايات المتحدة وحماية إسرائيل،والتي نجح اللوبي اليهودي في أمريكا وقادة إسرائيل في تصوير إسرائيل بأنها الحصن الآمن ضد القومية العربية الثورية وراعيتها الشيوعية السوفيتية،وقد كان هناك إجماع بين الكونجرس والسلطة التنفيذية آنذاك- رغم أنه توافق نسبي - حول أهمية إسرائيل لاحتواء المنطقة العربية في إطار صراعات الحرب الباردة. (٧).على الرغم من التزام الولايات المتحدة أخلاقيا وإيديولوجيا بحماية إسرائيل، إلا أن هدفها الأساسي هو ضمان الحصول علي نفط عربي رخيص من منطقة الخليج وخاصة من السعودية.لم تعد دراسة وفهم الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها الخارجية ترفًا أو حبًا في المعرفة والإطلاع ، بل باتت ضرورة تفرضها هيمنة الولايات المتحدة علي قيادة النظام العالمي،واعتبارها القطب الأوحد والأهم في هذا النظام،خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتي ،ومن ثم ثقل دورها كقوة خارجية مهيمنة علي مجريات الأحداث في المنطقة العربية منذ انتصارها علي العراق في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ بصفة خاصة.وبعد ذلك بدخولها كغازية ومحتلة للعراق عام ٢٠٠٣م، وقبلها لأفغانستان عام ٢٠٠٢م.لذا جاءت هذه الدراسة كجزء من المساهمة في فهم الحضارة الجديدة التي بدأت تشكل عدوا جديدا أيديولوجيا وليس حضاريا،فالتقدم التقني والمنهجي الذي شهدته الحضارة الجديدة شيء، والمحاولات الثقافية التي تحاول بثها في العالم شيء أخر، كون المنهج الثقافي لها غير مكتمل بل لا يزال في مرحلة الطفولة،بعكس الحضارات الأخرى في العالم، والتي اكتملت فيها الثقافة كجزء رئيسي من بنيتها الحضارية، لذا فالخوف لا يأتي من التقانة أو المنهج التقني، بل يأتي الخوف من المنهج الثقافي والبنية المعرفية - الثقافية لهذه الحضارة، والتي تحول كل شيء في طريقها على تراب، على طريقة هولاكو عندما غزا العالم

الإسلامي قبل تسعة قرون،وهذا الخوف دفع العديد للتنظير إلى مفهوم الحوار والتواصل الحضاري، ولكن الذي فاتهم أن التواصل يكون بين متكافئين في كل شيء،ومن نحاول التواصل معهم يشبهون أناس المريخ الافتراضيين، الذين يتكلمون لغة غير مفهومة بالنسبة إلينا نحن سكان الأرض،فحالنا في التواصل مع الحضارة الجديدة،من هذا الباب،لذا فعرض آليات التواصل والتنظير لها ترف فكري،ولكن أصحاب هذا الاتجاه يرون،أن هذه النقلة الحضارية الراهنة تأتى فى أعقاب مرحلة شهدت أكثر الصراعات والصدامات دموية فى العالم..وإذا ما علمنا أن هذه الصدامات كانت الأطراف الأساسية فيها تنتمى إلى نفس الحضارة(الغرب)،فإنه يمكننا تصور مدى ضراوة هذه الصدامات إذا كانت بين أطراف تختلف فى انتماءاتها الحضارية..وعليه فإن الدرس الذى يجب أن تعيه البشرية من هذه التجربة القاسية هو ضرورة الالتقاء حضاريا،والتعاون بين الشعوب على صالحها العام.ومن دواعى اللجوء إلى الحوار الحضاري،أنه لا تزال بعض التيارات الفكرية فى العالم تفكر بمعايير عصر الصدام،وترى أن الصدام أمر حتمى. وأن انتهاء حلقة من هذا الصدام لابد وأن تتلوها حلقة أخرى تختلف فيها أطراف الصراع ومضامينه.ومن هذا ما نشاهده من بعض الآراء التى ترى فى الإسلام العدو المرشح للغرب بعد سقوط الشيوعية. (٨).

يجب أن نعترف بأن ميزان القوى فى العصر الحالى قد مال لصالح الغرب.. ولهذا فهو يسعى إلى نشر ثقافته ونمطه الحضاري على العالم بادعاء أنه السبيل لتحقيق حياة أفضل للبشرية من وجهة نظره..ولهذا يلاحظ أن هناك تيارات تدعو إلى فرض نمط الحضارة الغربية باستخدام كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية،وهو ما ظهر فى مناسبات ومحافل دولية مختلفة،ومن شأن هذه الدعوات أن تغذى مظاهر الصراع الحضاري بين البشر،وتدخله فى حلقات جديدة أكثر عنفا وضراوة..ومن ناحية أخرى فإن هناك تيارات تدعو إلى التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابى بينها لإبراز العناصر التى تعزز تقدم البشرية،ويجب على جميع

القوى المستنيرة فى العالم- ومن بينها المسلمين- أن تدعم هذه التيارات التى تدعو إلى احترام مختلف الحضارات.

ذكر بعض الباحثين وسائل وآليات للتواصل الحضاري،واعتبروها الأساس في أي تواصل.(٩).(فلتحقيق التواصل الحضاري بين الجماعات البشرية نحتاج إلى فهم أربعة آليات، أو بعبارة أدق هناك أربع آليات للتواصل الحضاري وهي: التجارة،والحرب، والحمل،والتعرض والتعريض).إنّ مفهومي التجارة والحرب واضحان بلا شك.أمَّا مفهوم الحمل فالمقصود به هو:تحرُّك الأفراد بين الكيانات الحضارية حاملين معهم بعض منتجات حضارتهم (المادية والمعنوية) إلى حيث يقصدون ومن ثم يعودون من المناطق الحضارية التي زاروها،وقد جلبوا معهم منتجات طريفة يقدمونها إلى مجتمعاتهم.بينما المقصود من مفهوم التعرض والتعريض الإشارة إلى فئة واسعة من نشاط أجهزة الإعلام في الدولة الحديثة وكذلك المعارض والمؤتمرات والمهرجانات وزيارات الفرق الفنية والعلماء والأكاديميين،كما يتضمن هذا المفهوم أنشطة الترجمة بجميع أشكالها ومستوياتها. (١٠)

نلاحظ وجود علاقة منطقية بين الحمل والتجارة،وهي العموم والخصوص من وجه،أي ألتقاء كلا المفهومين في وجه حمل الأيقونات الثقافية وتبادلها، كون التاجر والمسافر السائح يجلبون معهم منتجات حضارية من بلدان سفرهم،ويفترقون في كون التجارة تبادل مالي صرف،بعكس السياحة التي تدرج ضمن التنزه أو الترفيه،لذا فإن المفهومين مختلفان بهذا المعنى الدقيق،أما بالنسبة للتعرض والتعريض،فالأفضل استبداله بمصطلح أخر يؤدي المعنى بصورة أفضل،فالتعرض والتعريض لهما معنيان غير مستساغان البتة،فالتعريض التشهير،يقال عرض (بالشدة) فلان بفلان أي شهر به،والتعرض أسوا منه. فالمعنى البديل هو (التبادل الثقافي والمعرفي)،بلحاظ جمع المصطلح للمراد من التواصل،الأعلامي والعلمي والمعرفي،لذا أن تم تفكيك المعاني السابقة،سوف نجد أن آليات التواصل التي ذكرناها،هي بالأساس آليات للحوار،لذا

فأن الحوار والتواصل بناء على تلك الأسس واحد،لوحدة المطلب والغاية.نعم الكلام هنا في الحرب وهل هو آلية من آليات التواصل؟.

من الممكن التنظير هنا بأن الحرب بما هي هي، ليست إلا عملية إزاحة واستيلاء نوعي على الآخر، فالحرب تنشأ بناء على نزاع يتشكل بين مجموعتين بشريتين، تحاول أحداهما أن تزيح الآخرى بشتى الوسائل،وهذا شأن الحروب في كل زمان،فالمنتصر بالحرب(وأن كان الجميع منهزمين بالدقة) يملي على الآخر المنهزم شروطه،والتي هي بالنتيجة إزاحة من نوع ما،لذا لا يمكن جعل الحرب آلية للتواصل بمعناها الذي شرحنا،فتبقى ثلاثة آليات للحوار والتواصل فقط من مجموع الآربعة،وإذا فتحتنا قوس المعنى البديل يمكن ان نجمع آليات التواصل والحوار في (التبادل الثقافي والمعرفي والاقتصادي) ليكون لدينا معنى شامل لكل الآليات التي تم ذكرها،بالتالي فهي تغطي مساحة الحوار والتواصل بكل تفاصيلها. (١١)

ولكن تكمن المشكلة في تقبل المتفوق الحضاري لهذه الآليات،أي أن طرح هذه الآليات كان من قبل الطرف الأضعف في المعادلة،مما لا يعطي قوة كبيرة لها في قبال المتلقي القوى،الذي ينبغي أن يوافق على هذه الآليات حتى يتم تفعيلها،وإلا تبقى الأمور على ماهي عليه من التفاوت بين الأقوى تقانة الأضعف معرفيا،وبين الأضعف تقانة الأقوى معرفيا،هذه المعادلة ليست صعبة رياضيا.ويمكن التمثيل لها وفق الآتي:-

ت١ ع =/= ت ع١

فالتقدم التقاني لدى (ت١)لا يساوي التخلف التقني لدى(ت)،والتخلف المعرفي لدى(ع)لا يساوي التقدم المعرفي لدى(ع١). وعليه تكون النتيجة سالبة بانتفاء الموضوع.لآن موضوع التواصل والحوار ينبغي أن يكون تكافئي،وليس أحادي،فالحديث مع الغير الأقوى بهذه الآلية هو حوار الطرشان.وعلى أي حال فأن التاريخ لم يشر إلى وجود قوتين تم الحوار بينهما على أساس ضعف الأولى وقوة الثانية،بل يتم الحوار بين الأقوياء دائما،أما الضعفاء فيسحقون بالأقدام.وربما

شواهد القرن العشرين كافية لصحة ما قدمنا من رأي.لذا سوف نقدم بديلا عن الحوار والصراع في المبحث القادم،هذا البديل هو التكامل الحضاري،وسوف نحاول التنظير له بصورة شفافة ومختصرة.مع توضيح لأهم الأفكار بالرسوم البيانية.

المبحث الثاني

التكامل الحضاري البديل الموضوعي عن الصراع والحوار الحضاري

عرفت الحضارة على أنها(الحضارة هي أرفع تجمّع ثقافي للبشر وهي أشمل مستوى للهوية الثقافية لا يفوقه من حيث تحديده للهوية الثقافية إلا الذي يميّز الإنسان عن غيره من الأنواع الأخرى، ويمكن تحديدها أو تعريفها بكل العناصر الموضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والتمايز الذاتي للبشر). (١٢). وعرفت أيضا بتعريف أخر هو: (الحضارة هي:- الدرجة العليا من تباين الوجود الإنساني،وهي ذلك الشيء القادر على إلغاء التناقضات القائمة ما بين المجموعات البشرية ذات الانتماء العرقي والثقافي المختلف،وكذلك بين الشعوب المتطورة وغير المتطورة وبين ماهية السلطة والحاجة إلى نظام عام وهي تتضمن في داخلها الأبعاد التاريخية للواقع وهي التي تعالج قضية الاستخلاف والتعاقب).(١٣).وهو ما يمكن اختصاره بأنها مجموعة بشرية اجتماعية وثقافية ذات مقاييس وأبعاد كبيرة مقتربين بذلك من مفهوم (توينبي) للحضارة،(بأنها الشكل الأكثر أصالة وواقعية للمجتمع البشري). (١٤).ونختم هذه التعاريف بتعريف (وول ديورانت) صاحب (قصة الحضارة):(الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وتتكون من عناصر أربعة هي: الموارد الاقتصادية،والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية،والعلوم والفنون.وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها). (١٥).

قد يكون لمصطلح (حوار الحضارات) شيء من المعنى إذا قُصد منه تأثر كل حضارة بالحضارة أو الحضارات السابقة لها،فهو معنى (عمودي) يضرب في الماضي،وليس شعاراً (أفقيا) يضطرب في الحاضر.وهذا التأثر بين الحاضر والماضي أمر مؤكد ثابت لا تكون الحضارة حضارة إلا به.لأنها لا تنبت من فراغ، وإنما هي حلقة من سلسلة متصلة:أخذت مما قبلها وبنت فوقه وزادت عليه،ثم جاءت الحلقة التالية من الحضارة فأخذت من الحلقة السابقة أحدث ما أنتجته وأضافت إليه. وقد تتداخل حلقتان،فيدخل آخر الحلقة السابقة في أول الحلقة اللاحقة،إلى أن تنقطع الحلقة الأولى بحكم ما يصيبها من ضعف وجمود.وكل ذلك يدلّ على أن الحضارة نتاجٌ تراكميٌّ شاركت فيه الحضارات السابقة،فهي إذن حضارة إنسانية عالمية،وإن اتّخذت أسماء مختلفة.وقد قامت الحضارة الحديثة على أساس وطيد من الحضارتين الإغريقية والإسلامية:من المنهج الفكري الحرّ عند سقراط وأفلاطون وأرسطو، وعند ابن رشد والفارابي والرازي وابن خلدون،وأضراب أولئك وهؤلاء.ومن أجل هذا لا يجوز لمسلم أن يُحس غربة عن هذه الحضارة الحديثة - التي هي حضارة عالمية شاركت فيها حضارته وكان لأسلافه نصيب فيها،ولا أن يتردد في الأخذ بها، بالمعنى الذي وضّحته قبل قليل للحضارة،وبالمعنى الذي سيأتي بيانه.ولكن هذا التوضيح لمعنى الحضارة لايزال محتاجا إلى مزيد من الشرح والبيان بتوضيح مفهوم مصطلح آخر هو (الثقافة) وهو الجانب الآخر من الحياة الإنسانية،الجانب الروحي المعنوي القائم على العقيدة وعلى التراث الفكري واللغوي والأدبي والفني، وما ينجم عن كل ذلك من ثوابت ورواسب ونوازع ودوافع وروادع نفسانية وأخلاقية وسلوكية في العادات والتقاليد ونمط الحياة لدى الفرد ولدى الأمة بمجموعها،وهو ما يبني ما يسمّى بـ(الهوية) أو(الشخصية) لتلك الأمّة فيميزها عن غيرها من الأمم، وينتج عن ذلك التمايز الاختلاف بين الثقافات المتباينة في العصر الواحد وفي تراث الثقافات السابقة.وهو اختلاف قد ينشأ عنه (الحوار) بين أهل ثقافتين أو ثقافات متعددة،فيحدث تبادل التأثر الظاهر والخفيّ،بالاقتباس والتقليد والتدخل والتمازج،

فتغنَى كل ثقافة من الأخرى إذا اقتبست ما تحتاج إليه لا ما يُفرض عليها،وإذا أخذت ما تريده لا ما يُراد لها،وتمثّلته وهضمته وأصبح جزءا من كيانها.وقد يكون هذا الاختلاف سببا أيضا في (الصراع) بين أهل الثقافات المختلفة.حين تستهوي القوة الغاشمة أهل الثقافة الأقوى فيرون أن ثقافتهم هي الأجدر بأن تسود غيرها،فيحاولون فرضها بوسائل متعددة على أهل ثقافة أو ثقافات أخرى- بعضها ذات تراث إنسانيّ عريض - فرضا ينتهي بتدمير كثير من مقوّمات تلك الثقافة أو الثقافات،وبذلك تُمْحى بالتدريج هوية أهلها،وتسلب شخصيتهم،حين تزعزع عقيدتهم،وتغزى لغتهم ويُنسى تراثهم فيضيع من نفوس الأجيال.فـ(الصراع) و(الحوار) إنما هما بين أهل (الثقافات) التي تتعدد بتعدد الأمم وتختلف باختلافها،وليس بين (الحضارات) التي هي في عصرنا (حضارة) واحدة لا تتعدد ولا تتصارع.

ولكن الحضارة - بالمعنى الذي شرحته - تُفرز بالضرورة ثقافتها الخاصة بها.وقد استهوت هذه الحضارة أهلها،فرأوا فيها أنها سيدة الكون،ورأوا أن بلادهم مركز الدنيا وما سواها فأطراف وحواش وهوامش.ونظروا إلى عوامل هذه الحضارة وأسبابها فوجدوها متمثلة في الأخذ بالعلم وبالعقل.فبالغوا في تقديس العلم حتى ألهوه،وذهبوا في الاعتماد على العقل مذهبا جعلوه وحده مصدر المعرفة ومقياسها،وشطّوا فيهما معا حتى عبدهما بعض علمائهم ومفكّريهم وفلاسفتهم،أو كادوا،وحتى أعلن فيلسوفهم الألماني(نيتشه)المشهور موت الإله،وعدُّوا الإنسان صانع نفسه وتاريخه.وهكذا أصبح من خصائص هذه الثقافة (الحضارية) أنها ثقافة فردية مادية.

وليس القصد هنا أن نفصّل القول في هذه الثقافة،وإنما سُقنا ما سقناه لنستدلّ به على القول إن من الطبيعي أن ينشأ الخلاف بين هذه الثقافة والثقافات الأخرى التي تنطوي على بعض خصائص هذه الثقافة ولكن بمقدار،وتمتاز منها بخصائص أخرى تكبح بعض ما فيها من الشطط والغلواء،وتجعلها ثقافة وسطا متوازنة.وكان من

الطبيعي أيضا أن ينشأ بين أهل تلك الثقافة وأهل الثقافات الأخرى أنواع من الصراع تحاول فيه تلك الثقافة (الحضارية) بشتى الوسائل أن تسود وتصبح وحدها هي (الثقافة) وتحاول الثقافات الأخرى أن تقاوم هذا (الغزو) وأن تحصّن نفسها دون اختراقها. وهكذا ينشَب الصراع بين الثقافات.

وكما تلد الحضارة ثقافتها فإن الثقافة أيضا تلد حضارتها،وربما كان هذا التوالد ثم التلازم هو الذي جعل بعض الباحثين يعدُّون (الحضارة) و(الثقافة) أمرا واحدا، ويرون أن اللفظين من الألفاظ المترادفة.وعليه فأن نظرتنا هنا لهذا الصراع ليس احتوائه عن طريق الحوار،وإنما عن طريق التكامل.والذي يمر بثلاثة أدوار هي:-

١- الدورة الحضارية:- ونعني بها الدورة الطبيعية للحضارات من خلال السنة الطبيعية للكون.فالحضارات كافة تخضع لهذه السنة،وقد اختلفت النظريات والأطروحات في تفسير هذه الدورة الحضارية،وهنا نستطيع أن نميز بين عدة مدارس،قد ترجع في نهاية المطاف إلى اتجاهين رئيسين،أولهما يرى أن الدورة الحضارية تمر بسنة كونية وضعها المؤثر الوحيد في الكون،أي الله سبحانه وتعالى،ويتفرع هذا الاتجاه إلى عدة مدارس وتيارات فكرية،تتنبى هذه الأطروحة.وثانيهما يرى أن السماء ليس لها أي دور في هذه الدورة،وأن السيروة التاريخانية للبشر والصيرورة الفكرية له،هي المسؤولة عن هذه السنة،والمتغيرات تتبع للسيرروة والصيرورة التي يمر بها البشر،ويتفرع هذا الاتجاه إلى عدة مدارس أيضا،تنتهي إلى هذا الاتجاه. فوجود وحدة مناط بين المدارس المختلفة في الاتجاه الواحد،هو ما يشكل هيأة هذه الأطروحة أو تلك.وربما يكون الفهم غير الدقيق لبعض الأحداث التاريخية،هو من الأسباب التي دفعت إلى ظهور تيار الصراع بين الحضارات،والذي شكل صورة القرن العشرين والقرنين السابقين له،وربما يشكل الصراع الصورة النمطية للقرن الواحد والعشرين.وعليه تبقى جدلية الصراع والحوار قائمة، مالم تقدم أطروحة بديلة لفهم السيرورة والصيرورة الحضارية، والتي تشكل ركن من

أركان الفهم الحضاري، الذي سميناه في هذه النقطة بالدورة الحضارية، وأفترض أن أطروحة التكامل الحضاري،والتي سوف نتحدث عنها لاحقا في هذا المبحث هي الحل لهذه الموضوعة الشائكة.

٢- التعاقب الحضاري:- ونعني به دخول حضارة جديدة على حضارات قديمة زمانا،لتأخذ دورها ومكانها بديلا عن القديم،وتمارس دورها المحوري في العالم،بناء على مناطق الهيمنة للحضارة القديمة،كما في تقاسم تركة الإمبراطورية العثمانية،من قبل القوى المنتصرة في الحرب الأوروبية الأولى عام ١٩١٨م.هذا التعاقب فهم كما فهم سلفه،أي الدورة الحضارية، يعتبر جدلية بل إشكالية أخرى في الفكر البشري،على أمتداد التاريخ،فالتعاقب قد يفهم منه الالتهام- كما سوف نبين- لكن الواقع أن الالتهام المزعوم،يستبطن تكاملا ربما يظهر بعد مدة زمنية،أي أنه غير آني الظهور بل هو مستقبلي الظهور،فقد فهم بعض مفكري الغرب،أن الحضارة الإسلامية قد التهمت الحضارتين الفارسية والرومانية، لكن الواقع أن الحضارة الإسلامية أكملت مابدأت به الحضارتين السالفتين على الحضارة الإسلامية،وعلى المستوى المعرفي والتقني،بل إضافت العديد من القضايا الفكرية والتقنية والمعرفية بصورة عامة،وابدعت علوما عديدة مثل علم الكلام.فما يفهمه الأخر صراعا يؤدي إلى الالتهام،نفهمه تكاملا وتطورا.فالتعاقب أمر طبيعي جدا،ولكنه لا يبنى على الالتهام بل يبنى على التكامل الحضاري الذي هو من مؤديات التعاقب الحضاري.

٣- التكامل الحضاري:- ونعني به أن الحضارات تتكامل فيما بينها،فبناء الحضارة الجديدة، يأتي على ما أتمته الحضارة السابقة وهكذا،دون الحاجة إلى صناعة أعداء افتراضيين،بل الحضارات تكاملية بمعنى تتطور وفق الحاجة الإنسانية،ووفق متطلبات الحياة التي تفرضها الطبيعة البشرية التواقة إلى التكامل.أي أن الحضارات تتكامل وفق السيرورة والصيرورة التي تحددها الحاجات البشرية،والتي تكبر وتتطور تبعا لتطور الإنسان.

وحتى تتضح الصورة أكثر نبين هنا أنواع من الحضارات،أو أنواع الحضارات مع رسوم بيانية لتوضيح مقصدنا.

١- الحضارة الملتهمة:- وهي تلك الحضارة التي تلتهم الحضارة أو الحضارات المتعددة.وهي النموذج الأول للصراع.ومن أمثلتها الحضارة اليونانية التي التهمت الحضارات الواقعة جنوبها-شمال افريقيا والعراق- كما مبين في الشكل رقم -١-

الشكل رقم -١-

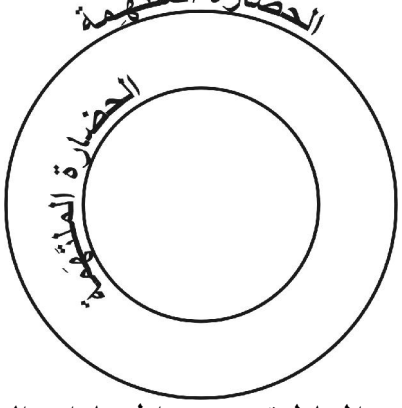

٢- الحضارة أو الحضارات المتقاطعة:- وهي الحضارات التي تتقاطع فيما بينها في كل شيء،وهي النموذج الثاني للصراع بين الحضارات وكما مبين في الشكل رقم -٢- ومن أمثلتها الحضارة اليونانية في شكلها الأثني والحضارة الإسبارطية.

الشكل رقم -٢-

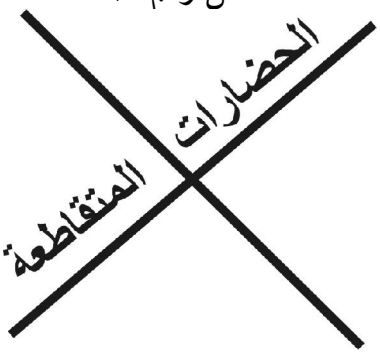

٤- الحضارات المتضادة:- وهي الحضارات التي تتنافس فيما بينها للوصول إلى الهيمنة والسيادة.ومن أمثلتها الحضارة الغربية والشرقية في عصرنا هذا.وكما مبين في الشكل رقم-٣-

الشكل رقم -٣-

٤- الحضارات المتكاملة:- نطلق على التراكم المعرفي بين الحضارات،تسمية التكامل الحضاري،فمهوم التكامل الحضاري هو استمرارية الحضارة السابقة من خلال الحضارة اللاحقة، ولتوضيح الفكرة نرمز للحضارة السابقة برمز - س- وللحضارة اللاحقة برمز - ل - وللتكامل بينهما برمز - ت- فتكون المعادلة وفق الآتي في الشكل رقم -٤-:-

الشكل رقم -٤ -

$$\text{ل} \wedge \text{س} = \text{ل ت}$$

فالحضارة - ل - تكامل الحضارة - س- لتنتج الحضارة المتكاملة - ل . ت - التي تمثل التكامل الحضاري في صورة من صوره الأولية.ولتستمر العملية التكاملية وفق خطوط وانحناءات متعددة، تبدأ بولادة الحضارة ثم نموها ثم بنائها ثم تكاملها لتعود إلى مرحلة الفتور،وبعد ذلك الفتور تبدأ مرحلة بزوغ حضارة جديدة لتسير في خط أكمال البناء والتكامل ثم الفتور،وهكذا لحين الوصول إلى التكامل الكلي في دولة الوعد الإلهي.التي تنتظرها الإنسانية جمعاء.وللتوضيح أكثر نوضح بهذا الرسم البياني في الشكل رقم -٥-

الشكل رقم - ٥-

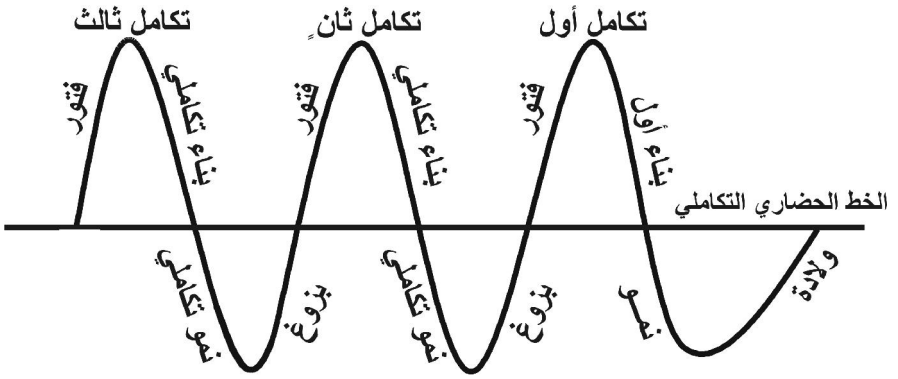

ومن ضمن الأفكار التي طرحها أصحاب فكرة الصراع،هو خط الصدام بين الحضارات والتي تؤدي إلى التقاطع أو التضاد أو الالتهام،ولكنهم أدركوا شيئا وفاتهم أشياء.فلو نظرنا بصورة أخرى ومن زاوية أخرى لوجدنا أن هناك خطين للسير الحضاري، أولهما الخط الظاهري وهو خط الصراع،والذي بنيت عليه نظرية الصراع وضدها،أي نظرية الحوار،بينما هناك خط أخر مخفي هو خط التكامل والذي يقع تحت خط الصراع،ويكاد يكون مخفيا عن الأنظار،إلا أن نتائجه هي الواضحة.

فمن الطبيعي أن الصراع والحروب هي التي يكثر ذكرها في التاريخ،باعتبارها ملاحظة بشدة لقوة بروزها وهيمنتها على الأحداث،بينما نرى أن خط التكامل المعرفي يذكر هامشيا،فنسمع عن الترجمة أو الإضافة العلمية أو بناء المعاهد العلمية وتطويرها في هامش التاريخ،فاكتشفنا وجود هذا الخط المخفي،والذي دلنا عليه هو كثرة وتطور النتاج الحضاري بين الأمم،ففي الفلسفة هناك مائتا مسألة تم استلامها من اليونان،فطورها المسلمون لتصل إلى سبعمائة مسألة،ثم اتى الأوروبيون ليوصلوها إلى ألف ومائتي مسألة،وربما تتطور أكثر،وكذلك الاختراعات التي أبتكرها المسلمون،طورها الأوروبيون من بعدهم،وهذا الخط سائر منذ التكون

الحضاري الأول وسوف يستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.ولتوضيح الفكرة نبينها بهذا الرسم التوضيحي في الشكل رقم -٦ -

الشكل رقم -٦ -

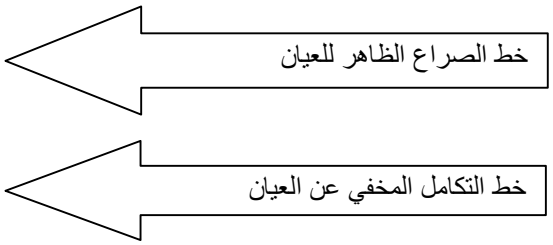

فهذان الخطان يسيران بصورة متوازية،فكل صراع يستبطن تكاملا في داخله،حتى وأن لم يظهر للعيان،إلا أن نتائجه تظهر تباعا،وهناك ملايين الشواهد على هذا الكلام وهي في متناول الجميع.من خلال تطور وتنامي الحضارات المتعاقبة،الواحدة تلو الأخرى، {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }البقرة٢٥١.([١٦]).

فهذا التدافع بين الناس هو الأساس في التكامل كما أن التعارف بينهم هو الأساس الأخر:- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }الحجرات١٣.. ([١٧])

وهذا الأمر لا يمكن الهروب منه أو عنه مطلقا لآنه سنة تاريخية ثابتة لا تحول ولا تزول:- {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }الأحزاب٦٢. ([١٨]).

وقوله تعالى:- {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }الفتح٢٣. ([١٩]) فالآخر ناصبنا العداء وانطلق من مبدأ الهيمنة والغطرسة العنصرية والفوقية العقلية والتقنية،ونحن نخاطبه بنفس خطابه معكوسا،حتى لانكون في أثره وإثره،بل نكون معلمين له ومؤدبين.جتى يأذن الله لنا بالفتح والنصر.{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }النور٥٥. ([٢٠]).

وذلك {وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ }هود٦٥.([٢١]).بقي أن نبين بعض أهم اسباب تشكل هويتنا،ونهضتنا الحضارية كتتمة لهذا المبحث، نحتاج للنهضة الحقيقية أن تتشكل هويتنا الحقيقية - الواقعية،فنحن بين ثلاثة رؤى،الأولى الهوية بفضائها الوطني،والثانية بفضائها العرقي والثالثة بفضائها الثقافي،فهل نحن وطنيون أم عروبيون أم إسلاميون،أفترض أن تشكل الهوية الحقيقية يحتاج إلى تحقق الثلاثة معا أو واحدة على الأقل،فمن لم يكن مسلما فهو عربي ومواطن،ومن لم يكن عربيا فهو مواطن في الدولة،فالشيعة هم مسلمون وعرب ومواطنون،ومثلهم السنة العرب،والكرد هم مسلمون ومواطنون،وفي العراق مثلا عرب وكرد وتركمان وغيرهم،من ديانات مختلفة،فهم مواطنون في الدولة،فمن يحمل ثلاثة صفات من محددات الهوية هو مواطن ومن يحمل واحدة هو مواطن أيضا. الهدف من كل هذا هو إصدار بيان نعي الحضارة الإيديولوجية وقيام حضارة الإنسان.فالهدف الآن هو الإنسان والإنسان أولا،وبعد ذلك تأتي سائر المحددات،فكيف نستطيع أن نبني حضارة يكون فيها المواطنون طبقات ودرجات،وكيف ننهض من واقعنا المرير ونحن لا نزال نفكر بالقومية كأيديولوجية للخلاص مثلا،هذا التفكير ليس مختصا أو منحصرا بالعرب،فالكرد والتركمان مثلا لديهم نفس التفكير،بل لا يزال السادة الكرد يصرحون بين الحين والآخر بأن بقائهم ضمن حدود العراق الجغرافية مشروطة بعدة قضايا،ومتى ما اختلت واحدة بسبب الظروف المحيطة بالبلاد يسارعون لدق طبول الانفصال،مما يشعرنا بأنهم متفضلين على العراق ببقائهم ضمن إطاره الجغرافي،كيف ينسون أنهم مواطنون ضمن هذه الرقعة الجغرافية،وأنهم شركاء مع الآخرين في الهواء والماء والتربة،وعلى أي حال فإن المحددات ورؤى التشكل هو ما ينبغي أن نتبعه إذا كنا فعلا نريد أن نبني حضارة الإنسان.

هوامش البحث

([1]) ينظر- توماس شيلينج - استراتيجية الصراع - ت- نزهت طيب و اكرم حمدان- طبع الدار العربية للعلوم ناشرون - مركز الجزيرة للدراسات- بيروت - لبنان- الطبعة الاولى٢٠١٠-ص.

([2]) مصطلح يراد به الآليات،اي آليات الدفاع العسكري أو النفسي أو الأقتصادي،ويستخدم عادة مع قرينة تصرفه إلى معناه المراد منه فهو مشترك لفظي لا معنوي وفق مقدمات الحكمة. ينظر- مجموعة من الباحثين- ألف مصطلح في الفلسفة والفكر والسياسة- دار مفكرون للنشر والتوزيع- امستردام-هولندا-ط٢٠٠٩-ص٥٨٩.

([3]) صامويل هنتغتون : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ترجمة : ملك عبيد ابو شبوة ، محمد خلق، الطبعة الاولى ، دار الجماهير للنشر والتوزيع ،ليبيا ، سنة ،١٩٩٩ ، ص ٢٣٩.

([4]) نفس المصدر السابق-ص٣٢٤.

([5]) مصطفى صايج - السياسة الامريكية اتجاه الحركات الاسلامية - التركيز على ادارة بوش الأبن ٢٠٠٠ -٢٠٠٨ - ،اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، جامعة الجزائر كلية العلوم السياسية و الإعلام سنة ٢٠٠٦-٢٠٠٧ ، ص ٤٤.نقلا عن موقع جامعة الجزائر - مركز الدراسات العليا - الاطاريح والبحوث والدراسات.

([6]) اناتول ليفن - امريكا بين الحق والباطل - تشريح القومية الأمريكية ت- ناصرة السعدون -ط- مركز دراسات الوحدة العربية بيروت - لبنان - الطبعة الاولى ،سنة ٢٠٠٨، ص١٢٧

([7]) د- فواز جرجس - السياسة الأمريكية تجاه العرب كيف تصنع ومن يصنعها - ط- مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - لبنان - ص٣٣.

([8]) هذا الرأي لصموئيل هنتنغتون في كتابه الشهير صراع الحضارات وبناء النظام العالمي الجديد،وكذلك مواطنه فرانسيس فوكوياما في كتابه الأشهر نهاية التاريخ أو الإنسان الأخير.

([9]) عبد الله حكيم كويك- آليات التواصل الحضاري وأثرها في الدعوة- ط - الرياض-السعودية- دار الدعوة السلفية للنشر والتوزيع- ط-٢٠١٠م- ص٢٣.

([10]) ينظر الشيخ عبد الله بن بيه- معالم وضوابط التواصل مع الآخر ووسائله وآلياته- ط- صنعاء- اليمن- جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات- ط٢٠٠٩م- ص٢٩٠.

([11]) عيسى الطيب طيبي - التواصل الحضاري- ط- الدوحة- قطر- المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية- ط-٢٠٠٧م- ص٢٢٩.

([12]) صموئيل هنتنغتون - الإسلام والغرب آفاق الصدام - ت - مجدي شرشر - ط - مكتبة مدبولي - مصر - القاهرة- ص٩.

(١٣) ألكسي مالا شينكو - الإسلام الثابت الحضاري والمتغيرات السياسية - ت- ممتاز بدري الشيخ - طبع دار الحارث - دمشق - سوريا -١٩٩٩-ص ١٨.

(١٤) أرنولد توينبي - دراسة للتاريخ - ت- فؤاد محمد شبل- طبع الهيأة المصرية العامة للكتاب- مصر- القاهرة-١٩٩٤-ص١٩.

(١٥) وول ديورانت – قصة الحضارة- ت- محمد بدران-ج١- من طبعة جامعة الدول العربية- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- ص٤٥-٤٦

(١٦) القرآن الكريم- سورة البقرة- الأية٢٥١.

(١٧) القرآن الكريم - سورة الحجرات-الأية١٣.

(١٨) القرآن الكريم - سورة الأحزاب-الأية٦٢.

(١٩) القرآن الكريم- سورة الفتح- الأية٢٣.

(٢٠) القرآن الكريم- سورة النور-الأية٥٥.

(٢١) القرآن الكريم- سورة هود-الأية٦٥.